القسام إمام المجاهدين

كانت بلدة جبلة السورية عام ١٨٨٣م، على موعد مع ميلاد ثائر عظيم ذاع صيته، ولمع نجمه، وكان له دوره البطولي في كفاح المحتلين، وإحياء اليقظة الإسلامية، وإلهاب الشعور الديني بين أبناء وطنه..

ذلكم هو العالم المجاهد (محمد عز الدين القسام) كانت أسرته فقيرة تعيش على الكفاف، لكنها كانت متدينة ومعروفة بتدينها وحبها للعلم الشرعي، وكان والده وجده من رواد الطريقة القادرية الصوفية المنسوبة للإمام عبد القادر الجيلاني، قرأ القرآن الكريم وتعلم القراءة والكتابة والحساب في الكتاتيب، ودرس مبادئ العلوم الشرعية على والده، وتتلمذ في جبلة في زاوية الإمام الغزالي لشيخين عُرفا بسعة العلم والمعرفة في اللغة والتفسير والحديث والفقه، و أرسله أبوه إلى مصر لينهل من العلم في رحاب الأزهر الشريف وهو في الرابعة عشر من عمره عام ١٨٩٦م، وجلس ١٠ سنوات إلى أن نال العالية الأزهرية سنة ١٩٠٦م، وعاد إلى بلدته جبلة، وتولى تعليم الأطفال في الصباح، وتعليم الكبار في المساء، ووظف كل طاقته وإمكاناته في التعليم، وفتح مدرسة في جبلة سنة ١٩١٢م، ودرّس الحديث وتفسير القرآن الكريم في جامع إبراهيم بن أدهم بجبلة، ثم عُيّن موظفًا في شعبة التجنيد بجبلة، وعندما صار خطيبًا في جامع المنصوري في وسط البلدة، كان المصلون يتوافدون إلى المسجد من أحياء البلدة القريبة والبعيدة ومن القرى المجاورة، «كانوا يتوافدون لسماع هذا النمط الجديد من خطب الجمعة التي تهز المشاعر، وتعالج المشكلات اليومية، وتتناول هموم المسلمين، وكان الخطباء، قد تعودوا أن يُسمعوا المصلين في كل خطبة كلمات الإطراء والحمد للأفندية والأغوات..

أما عز الدين القسام، فقد كسر العرف عندما اعتلى منبر جامع المنصوري، وأسمع الناس شيئًا جديدًا يوقظهم من ثباتهم، فكان يقول :«إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» كونوا أعزة كرماء «ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين» ولا إيمان لمن رضي بالخنوع، واستكان للظلم، واستعذب العبودية للبشر.» كان أكثر المشايخ تطرقًا لضرورة الجهاد، ومنع الصهيونية من أن تحقق أحلامها في بناء وطن قومي على أرض فلسطين، وكان يركز على الاستعمار البريطاني والصهيونية، ولقد استجوبته السلطات البريطانية لعدة مرات.. وجه القسام اهتمامه بتعليم أطفال القرية، حتى تغيرت معالمها ودب في أهلها حماس ديني شديد.. وفي ٢٧ أيلول ١٩١٨م أعلن جمال باشا انسحاب الدولة العثمانية جيشًا وحكومة من سوريا، وفي مطلع تشرين الأول ١٩١٨م دخلت جيوش الحلفاء دمشق.

وفي عام ١٩١٩م تألفت الفرق الثورية في سوريا بعد قيام فرنسا بتقسيم المنطقة، وأخذ (القسام) يحرض الجماهير ضد المستعمرين، ويدفع للثورة عليهم، وكان أول من لبى وأجاب، فانضم إلى الثوار في قرية شير القاق من جبال صهيون، وانتظم في عداد رجالها، وتقلد السلاح جنديًا في خدمة الإسلام، وكان معه طائفة من مريديه وأتباعه الذين علمهم ورباهم، وكان أول من رفع راية المقاومة ضد فرنسا، وأول من حمل السلاح في وجهها، واستمر في جهاده قرابة عام في " ١٩١٩ _ ١٩٢٠" وكان يلقب بداعية الجهاد، وباع بيته لشراء السلاح، ليقتدي به من حوله في التضحية بالمال والنفس، واستجاب لدعوته الجهادية جمع غفير من الناس، دربهم على حمل السلاح وفنونه، وكان القسام ذا خبرة في استعمال السلاح، لأنه التحق بالجيش العثماني، عندما دعا السلطان إلى الجهاد لمحاربة الإنجليز، وله خبرة سابقة

من ذلك، في إعداد المجاهدين وتجهيزهم عندما استجاب لنداء الحكومة العثمانية للتطوع لحرب إيطاليا في طرابلس سنة ١٩١١م.

ولما أحاط به الفرنسيون وأوشكوا على القضاء عليه أثناء المقاومة، رأى أن مُنازلتهم في سهول جبلة المكشوفة، تتيح لجيشهم قمع ثورته، فتطلّع إلى موقع أكثر حصانة فاختار جبال صهيون ميدانًا للجهاد فنزلها ورجاله، وطفقوا يغيرون على المراكز العسكرية الفرنسية، وكان لهجماتهم أثر شديد الوقع على الفرنسيين، فحاولوا إغراءه واستمالته لوقف حركته، ولكنه أبى وتمنع عليهم وقال لرسولهم: «عد من حيث أتيت، وقل لهؤلاء الغاصبين: إنني لن أقعد عن القتال أو ألقى الله شهيدًا»

وصدر عليه حكم بالموت غيابيًا، في منشور يضم اسمه وعددًا من المجاهدين.. ووضع الفرنسيون مكافأة قدرها عشرة آلاف ليرة لمن يدل على مكانه، أو يمسك به ويقدمه للسلطات الفرنسية، وكان يزور القرى ويجوب المدن يدعو فيها للجهاد، واستطاع أن يكون تنظيمًا جهاديًا سريًا لمواجهة المحتلين وإحياء فريضة الجهاد.. وانتقل عز الدين القسام إلى دمشق للدفاع عنها من الاحتلال الفرنسي، ثم غادرها بعد استيلاء الفرنسيين عليها سنة ١٩٢٠م، وأقام في حيفا.. وبعد أن غادر حيفا مع مجموعة من المجاهدين متجهًا إلى يعبد، كان يتعقبهم مجموعة من جواسيس البريطانيين، فعرفوا مكان استقراره ورفاقه، فحاصرهم البوليس الإنجليزي يوم ١٩٣٥/١١/٢٠م بـ ١٥٠ شرطيًا وحلق القائد البريطاني فوق موقع الشيخ ورفاقه "في أحراش يعبد" بطائرته، وعرف القسام أن البوليس قادم لا محالة.. واتخذت المعركة بين الطرفين شكل عراك متنقل، وساعدت كثافة الأشجار على تنقل أفراد الجماعة من موقع إلى آخر، واستمرت حتى الساعة العاشرة صباحًا، وحارب الشيخ وشفتاه تتفوهان بالدعاء، حتى نال الشهادة مع اثنين من رفاقه..

وبعد انتهاء المعركة، تعمد قائد البوليس الإنجليزي إهانة جثة الشهيد القسام، ويقال: إنه داس على رقبته بحذائه.!

لأنها الرقبة التي ظلت مرفوعة أبية، لأنها الرقبة التي حملت رأسا مملوءة بالعزة والشموخ، لأنها الرقبة التي حملت رأسًا معممة قائدة رائدة مناضلة، لتصير بعد ذلك رمزًا للجهاد في سبيل الله، والنضال لحرية الأوطان والجلاء.